منَ هُوَ سَيّدُ القَدَر
في حَيَاةِ الإنسَان؟

بقَلَم
الدكتور محمد سَعيد رَمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده. ياربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك سبحانك اللهم لا احصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً متلازمين الى يوم الدين.

مقدَمة الطَبعَةِ الثَانية

قيل لي: لقد جعلت من هذا الموضوع قضية تحتاج الى بحث وتقوم على نظر واستدلال، وصنعت منها سؤالاً يحتاج الى جواب، فهل من عاقل يشك في أن الله هو سيد الأقدار؟

قلت لو كان الناس كلهم انما يساقون من عقولهم، لكان بحثي هذا يدور حول بديهية لا معنى لعرضها ولا حاجة الى البحث فيها؛ فان من أشكل المشكلات، كما قالوا، ايضاح الواضحات.

ولكن في الناس طائفة، إنما يساقون من مكمن الشهوات التي في نفوسهم أو العصبيات التي بين جوانحهم، فمهما ناديتهم باسم العقل السليم أو الفكر المتحرر لم يسمعوك ولم يلتفتوا إليك.

إنما هي الرغائب والشهوات فقط!.. ان اقتاضتهم أن ينكسوا الرأس الى الأرض نكسوه، أو الجأتهم الى المشي على أربع فعلوا!...

فماذا تبدأ الحوار مع هؤلاء الناس؟ وبأي منبه تفتح بصائرهم على حديث العقل؟..

لا سبيل الى ذلك سوى الانطلاق من البدهيات: تتحدث عنها وتركز عليها وتجعل لها في أسمعهم الطنين والرنين، حتى اذا التفتوا اليها، نسجت لهم من حولها بعض النتائج والمستلزمات، فمن يدري؟.. ربما نجح السعي وانطلقوا معك من أوتاد البدهيات الى سلسلة الحقائق والأفكار، وتحرروا شيئاً فشيئاً من سكر الشهوات وغبش الأهواء.

ما سمعت عن انسان قرأ رسالتي هذه في طبعتها الاولى، الا هز رأسه إيماناً وتسليماً، أو أطرقه استحياء من الاسر الشهواني الذي يعيش فيه.

فمنهم من حطم الطوق وانطلق من الاسر، ثم تنفس الصعداء يستنشق نسيم العقل.

ومنهم من لا يزال يحاول جهده ويبذل سعيه. وكفاهم شرفاً أنهم يحاولون.. ويبذلون..

أما الذين لا يزالون في الرقاد، لم يسمعوا طنيناً ولا رنيناً ولم ينتبهوا الى أي بديهة، فما دواؤهم الا استمرار العلاج، والصبر على المحاولة؛ ومآل كل نوم . ما دام أنه لم يتحول الى موت . الى اليقظة والانتباه.

من أجل هذا، أجدني سعيداً بتقديم الطبعة الثانية من هذا البحث الخطير وإن كان يعالج إحدى البدهيات.

وأجدني سعيداً كل السعادة في تقديمه إلى اخوة لا يزالون يجهدون ويحاولون.. وإلى اخوة لا يزالون يتقلبون في السرير.. سرير الرقاد الذي تطاول أمده، وعساهم يستيقظون قريباً، ثم يدركون جيداً أن رقاداً كهذا، يناقض شرف التطور ويعرقل عجلة التقدم، ويسيء الى يقظة العقل وحرية الفكر.

محمد سعيد رمضان البوطي
دمشق في ١صفر١٣٩٦ الموافق ٢شباط١٩٧٦

مَعذِرَة وَمقَدِّمَة

استطال الكثير من القراء فترة الصمت التي أعقبت كتابي(الاسلام ومشكلات الشباب). وتساءل الذين يتابعون ما أكتبه في مجلة(الوعي الاسلامي)الكويتية عن سبب اختفاء مقالاتي منها. وربما ظن البعض أنه الكسل قد ادركني وران بثقله علي، أو أن معين الفكر عندي قد دفع بكل ما فيه ثم جف!..

ليس في الأمر شي من هذا ولا ذاك، فما تعودت الكسل . بحمد الله . في ساحة البحث عن الحق والدفاع عن دين الله، ولا جف عندي للفكر معين، ولا استصلب العقل أو تحجر القلب.

ولكن عذري أن سلسلة من المشاغل داهمتني، كانت خاتمتها مصيبة صاعقة تفجرت في كياني، على غير توقع، صدعت القلب أوزاعاً، وأحالت الفكر أشتاتاً، وتركت النفس حيرى!..

وأقول:(مصيبة)، ولا أتأثم، ولا أرى فيها ما يعارض الرضا بقضاء الله، لأنه تبارك وتعالى قد سماها كذلك.

وليس أليق بالمصيبة . على كل حال . من الاسم الذي سماها الله تعالى به.

إنه مالكي الذي أنا عبده، شاء(وهو اللطيف الودود) أن يمنحني كأساً مترعة بذوب النعيم الصافي؛ رشفت بردها على ظمأ، وعللت بها القلب في نشوة بالغة وشكر عظيم.. ثم شاء(وهو الحكيم الخبير)أن يسلبنيها وأن أشد ما أكون تعلقاً بها، وحاجة إليها.. فله مني أصدق الحمد يوم أعطى ويوم أخذ. وله مني الرضى الكامل بقضائه الذي لا معقب له؛ له الحكم وحده، وله الملك كله.

أجل..لقد تألمت كثيراً لوقع المصيبة، ولقد تلوَّى هذا القلب الذي بين جنبي . ولا يزال . على جمة من العذاب!.. ولكن العقل لم يشك لحظة واحدة في الحقيقة الراسخة الكبرى:(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ورب مريض يعذِّب تحت مبضع طبيبه الجراح، وهو يشكره باللسان ذاته الذي يتوجع به!..

إنني لأتوجع!.. وإنه لينبعث التوجع من وراء أضلاع صدري نداء وأنيناً أتجه بهما إلى رب العالمين. ولكني أشهد أن عبوديتي لهذا الإله العظيم لن تترجمها لغة أبلغ ولا أبين من هذا النداء المتوجع الشاكي.

ومتى تظهر العبودية لله على حقيقتها، إن لم تظهر تمرغاً وأنيناً على باب رحمته وإكرامه؟.. ومتى يتمرغ الإنسان بهذا الشكل إن لم يصبه سهم نفاذ من نوائب القدر وحكمه؟..

اللهم يا أنيسي في الوحشة، ويا عوضي عن كل مصيبة، ويا أملي عند اليأس، بل يا منتهى أملي في كل شيء لقد وضعت جراح قلبي بين يديك، واتكلت في كل أمري عليك، واستعنت بك في متابعة طريقي إليك، فلا تبعدني عن جنبة رحمتك، وأذقني برد إحسانك ولطفك.

***

وبعد، فإن من لطائف الرحمة الإلهية أن يأتي موضوع هذه المعذرة براعة استهلال للمقدمة التي لا بد من عرضها بين يدي بحث طالما عزمت على معالجته ضمن بحوث هذه السلسلة، ثم لم تهيء الاقدار تحقيق ذلك إلا في هذه الأيام وعلى أعقاب هذه المصيبة بالذات!..

أصحيح أن الانسان إذا ما امتلك ناصية العلم، خرج من قوانين الكون والطبيعة، وتحرر من سلطان القدر في شؤونه وتقلباته، وأصبح هو المالك لأمر نفسه والسيِّد لقضائه وقدره؟..

بعض الناس يتصور ذلك!.. يتصورون أن العلم سُلَّم تلتصق أولى درجاته بأحكام الطبيعة وسلطانها، ثم يمضي صعداً حتى يتعلق آخر درجاته بعرض الوجود المطلق!..

وما على الانسان لكي يصل إلى هذا العرش إلا أن يتجه إلى هذا السلَّم فيقفز فوق درجاته، فإذا هو عتيق عن قوانين الكون كلها، متربع فوق عرش الوجود، ممسك بزمام الحياة ونظامها يصرفها كما يجب!..

ترى أين هو هذا السُلَّم؟ لقد بحثت عنه طويلاً، وأنا أتحرق على الحياة الغالية التي تنطفئ أمام عيني شيئاً فشيئاً، ولقد استغنت في البحث عنه بستة من الاطباء كلهم ذوو اختصاص عميق ودراية واسعة بقوانين العلم عموماً وشؤون الطب خصوصاً. فما دلني أحد منهم على المكان الذي يوجد فيه هذا السلم السحري العجيب.

وسألتهم عن أوربا وعن مدى إمكانات الأطباء في أوربا والوسائل العلمية فيها، ولكن أصحاب الاختصاص اجمعوا على أنه لا الطبابة ولا العلم يملكان في أي جهات العالم، سبيلاً لإعادة الأمور إلى نصابها وإنقاذ الحياة من مصيرها القريب المحتوم!..

ورأيت سلطان الله بعيني في الكلمة التي قالها أحد هؤلاء الأطباء، وهو أبعدهم عن المشاعر الدينية والخضوع للسلوك الديني: لا أمل إلا في معجزة ربانية خارقة!!..

وهكذا عجز الطب والعلم، وانحنت رؤوس أصحاب الدراية والاختصاص، أمام السلطان الإلهي القاهر، وانطفأت شعلة حياة باسمة رائعة كما تنطفئ أمثالها كل يوم. فمن هو إذاً سيد القدر في حياة الانسان؟؟!..

لو كان هؤلاء الذين يعلقون هذا الوسام على صدر الانسان، وينسبون اليه المالكية المطلقة لزمام الكون، ينبعثون في أفكارهم هذه من مشاعر النشوة وأحلام الشعراء، لأعذرناهم ومررنا بكلامهم غير عابئين، فإن للعلم نشوة تشبه السكر، لا تقل عن نشوة الشاعر إذا يفخر.. أو يتغزل.. أو يتشوق.. وان أحدنا ليسمع قول الشاعر:

إذا بلغ الفطام لنا رضيع***تخرّ له الجبابر ساجدينا

فيهز الرأس في ابتمام واعجاب، ومضي قائلاً: إن أعذب الشعر أكذبه، دون أن يخطر في باله أي انتقاد أو استعظام.

ولكن الشيء الذي لا يطاق، أنك ترى في الناس من يفلسف لك هذا الوهم ويدخله في حصن البراهين والادلة العمية، فيما يزعم. ولا يقنعه ما يقنع الشعراء من بساط الأحلام وأجنحة الخيال، رغم ما له فيهما من المجال العريض والمرتع الخصب!..

هذا الغرور ينبغي أن يرتد إلى مجاله الطبيعي من دائرة الإخيلة والأحلام. وما ينبغي أن يترك له منفذ يتسلل منه إلى موطن البحث العلمي، فإن أشد ما تنفر منه طبيعة العلم، غرور يركب بصاحبه متن المبالغات والتزيدات دون سند من المنطق والنظر، وهو يزعم لك أنه إنما يتكلم من فوق منبر العلم والمنطق!..

فأنا في هذه الرسالة إنما أريد أن أفرق بين الغرور الذي يدفع اليه علم يسير غير موصول الجوانب والأطراف، والتثبت الذي يحمل عليه علم متكامل يأوي إلى ركن ركين من الدقة والنظر والعمق.

فما الدليل على ان أولئك الذين يعلقون على صدر الانسان هذا الوسام الذي ذكرت، ثم ينعتونه بأنه سيد قدر،أنه انما ينطلق الغرور على ألسنتهم باسم العلم؟

هل في الكون محور من الأسس والقوانين الثابتة، أم إنه مجموعة أبخرة تكاثفت فتعقدت فتفرعت، جاءت بها ريح عاصف، وستمضي بها ريح عاصف، ويلعب العلم بها فيما بينهما كما يشاء؟

هل من علاقة بين قوانين الكون وانظمة السلوك؟ وهل يجب أن يقابل الثابت من القوانين الكونية بثابت من الالتزامات السلوكية؟

هل نستطيع أن نتبين الهوية الحقيقة للانسان من خلال دراسة أمنية واعية لهذه البحوث؟

سأبذل الجهد . مستعيناً بتوفيق الله . لإجابة موضوعية مجردة على هذه الأسئلة. وسأكوّن منها، فيما بعد، جواباً عن سؤال يلح فيقول: من هو سيد القدر في حياة الانسان؟!..

وكما أقول دائماً، أقول الآن: إنني لا أبتغي من القارئ الكريم، أياً كان، سوى أن يكون أميناً فيما يعي متجرداً فيما يعلم. إنني أرجو منه وأتوسل إليه أن لا يفهم شيئاً من كلامي بما قد يكون لديه من عوامل العصبية أو ردود الفعل، أو العقد النفسية، أو الاهواء والمصالح الشخصية.

لتكن كعبتنا التي نسعى جميعاً إليها، ونطوف جميعاً من حولها، هي الحقيقة.

إن الحقيقة هي الصديق الدائم للانسان، يجدها أمامه في سائر تقلباته ومختلف أحواله، تنجده حيث لا منجد، وتسعفه حيث لا مسعف.

إذا طوي الشباب بهيجانه وشهواته وأهوائه، وأقبل اليك من بعده الهرم والشيخوخة ثم الزوال.. لم تنفعك غد ذاك الا صداقتك مع الحقيقة.

فبمقدار ما قد كنت أميناً معها في رحلة هذه الحياة، ستكون خير خادم أمين لك في رحلة قادمة عبر المفاوز الاخرى***

ولسوف تذكر يوماً ما أقوله لك.

(محمد سعيد رمضان البوطي)

هَل الكون محور من النّواميس الثّابتة؟

هذا البحث يكوّن القاعدة الأساسية أو الارضية الشاملة، لسائر الفصول التالية الاخرى: بل إنه يتضمن المنارة الهامة التي تبعث الضياء الوهاج الى كثير من المجهولات والقضايا الغامضة، التي لسنا بصدد بحثها الآن.

وأريد أن ألفت نظر القارئ الكريم قبل كل شيء، الى أن المصطلح الذي نعتمد عليه في معنى الثابت وغير الثابت من النظم الكونية، إنما هو المواضعة العلمية القائمة على دليل التجربة والمشاهدة فقط. فلا جرم أنا لا نقصد بالثابت ما هو داخل في قسم الواجب الذي يستحيل انعدامه عقلا.[1]

ذلك لان هذا الكون كله بنواميسه الثابتة ونظمه المتطورة، انما هو من قسم الممكن الذي يجوز تغيره وانعدامه، اذ هو بجملته حادث مخلوق مهما قدرنا له عمراً مديداً من الزمن، وكل ما كان مسبوقاً بعدم جاز في حقه العدم مرة أخرى، وهذا معنى كونه من قسم الممكن.

الا أننا اذا نظرنا الى مجموع هذا الكون الذي هو قسم من الممكن، لاحظنا أن فيه محاور راسخة لا تختلف تطوف بها أنسجة ووقائع قابلة للتطور والتناسخ.

فهذه المحاور الراسخة هي التي نقصدها بكلمة النواميس الثابتة.

أما ما دونها من الاغلفة والنسج التي تطوف بها، فهي التي نعنيها بما سنسميه: المتطورة.

***

اذا عرفنا هذا فلنعد الى السؤال الذي بدأنا به هذا الفصل.

هل في الكون محور من النواميس الثابتة التي لا تتبدل، أم إن جميع ما فيه لا يعدو ان يكون أغلفة وانسجة تموج وتطوف حول نفسها، فهي قابلة للتطور والتناسخ؟

لا يشك الباحث العاقل، فضلاً عن الباحث العالم، أن في الكون محاور ثابتة راسخة، استعصى على سائر سبل البحث العلمي وأسباب التجربة والمشاهدة، على مر الازمنة والعصور، إلحاق النسخ بها أو ادخال أي تعديل عليها، حتى تكوّن من منهج الاستقراء التام دليل بدهي لدى الجميع، على أنها نواميس ثابتة راسخة، ليس من شأنها أن تتطور أو تتبدل.

فالكون منذ أقدم العصور الانسانية المعروفة، خاضع لنظام فلكي معين، ينقسم الزمن المطلق بموجبه الى عام، فشهر، فيوم.. وينقسم العام بموجبه الى فصول رتيبة متكررة لا تختلف من حيث جوهرها وأصلها الكلي؛ لم تتمكن أي إرادة انسانية غلابة مهما أوتيت من نفاذ الطاقة وبصيرة العلم أن تبدل منه أو تطور فيه!..

والإنسان منذ أن صحا إلى الدنيا التي هو فيها، يظل يجوع فيبحث جاهداً عن طعامه، ويظمأ فيجد بحثا عن شرابه، لا تستقيم حياته إلا بعون من هذا وذاك. ولا يطمع علم العلماء منذ اقدم العصور الإنسانية إلى أن يرث الله الارض ومن عليها، في الوصول إلى أي سبيل يحرر الإنسان من ألم الجوع ولهيب الظمأ، ليتحرر بالتالي من حاجة السعي إلى طعامه وشرابه.

ثم إن الانسان منذ أقدم الاحقاب التي وعاها، يبحث عن طعامه بين خيرات الارض، وينتظر شرابه متطلعاً إلى قطر السماء. فقصته مع الارض قصة طويلة قديمة لم تتبدل ولم تتغير: يفلحها بجهده، ثم يزرعها بيمينه، ثم يستحصد ما تغله له من هذا الحب الذي كان،

---

[1] تنقسم جميع المتصورات الذهنية، سواء منها ما كان له وجود خارجي وما لم يكن، الى ثلاثة أقسام: واجب، وهو الذي لا يمكن عدمه: ومستحيل، وهو الذي لا يمكن وجوده؛ وممكن، وهو الذي يصح في حقه الوجود والعدم، والمكونات كلها من هذا القسم الثالث، اذ يصح في حقه الوجود والعدم، والمكونات كلها من هذا القسم الثالث، اذ يصح في حقه الوجود والعدم.

ولا يزال، منذ أقدم أيام دنياه، غذاءه الاساسي الذي لا غنى له عنه، وكل ما استخرجه وابدعه لنفسه من الاغذية والاطعمة الاخرى إنما هو متفرع عن هذا الغذاء الاساسي الاول الذي لم يخضع في جوهره لشي من التغيير أو التطوير.

وهذا الانسان نفسه يتدرج . منذ ان عرفته الحياة . من مرحلة الطفولة الصغرى، إلى الصبوة اليافعة، إلى الشباب القوي الناضج، إلى الكهولة المدبرة، ثم الى الشيخوخة الفانية، حيث يتلقاه الموت الذي لا مفر منه ولا محيد عنه. ومع أن داب الانسان خلال هذه المراحل كلها إنما هو النزوع إلى البقاء والقوة، والفرار من الضعف والموت، بما يستعين به من عطاءات الكون، أو بما يفر اليه من وقاياته تعاويذه، أو بما يعكف عليه من العلم ووسائل الدراية والإبداع . فإنه لم يستطع يوماً ما أن يفر من قانون هذا التنقل الدائري المحكم: ضعف، فقوة، فضعف، فموت!..

والإنسان أيضاً، كغيره من جميع أصناف الحيوانات، يخضع لقانون لا يتخلف، في سبيل تكاثره وحفظ بقائه، نوعاً من أنواع الحيوانات المنتشرة فوق هذه الارض،هذا القانون يسير بالإنسان وفق مؤثرات قديمة ما كانت لتتغير أو تتطور، ثم ينتهي به إلى نتائج معروفة متكررة، ما كانت هي الاخرى لتتخلف أو تتبدل.

والموت!.. إن الموت لا يزال منذ فجر التاريخ، أخوف ما يخافه الإنسان على نفسه، وأعتى سلطان يسترقه ويستذله بلا شفقة أو رحمة. ولو أوتي إنسان الحضارة الحديثة أملاً ما في أن ينجح سعيه من أجل القضاء على هذا الموت، لألفى سائر مشاريعه العلمية المختلفة، ولطوى جميع مفاخره في ساحة الإختراع والإبداع، ولأدبر عن مراكبه المشروعة وأقماره المصنوعة، ثم مضى يعكف على اختراع (برشامة) تحرر الانسان من سلطان الموت!.. ولكنه أيقن أنه ناموس كوني راسخ ومستقر، لا تجدي معه أي حيلة، ولا يمكن أن يتخلص منه بأي وسيلة.

فهذه كلها نواميس ثابتة مستقرة في فلك الكون والحياة، لا سبيل لعلم أو قوة أو سلطان إلى تغييرها أو تطوير شيء منها.

ولكن فلنكن موضوعيين ودقيقين في دراسة هذه الحقيقة، أكثر مما قد يتطلبه الخصم، ولنفترض اعتراضاً يقول:

اين هو الدليل العلمي، على أن هذه الظاهر التي تتحدث عنها، نواميس مستقرة. كما تقول؟.. إن استقرار الشيء في واقع الامر ليس دليلاً على حتمية هذا الاستقرار أو على عدم جدوى الوسائل العلمية لتغييره أو تطويره.

إن العلم الذي يسر للانسان سبيل الصعود إلى القمر(وقد كان من المستحيلات التي لا يحلم بتحقيقها فكر ولا خيال) لا يبعد أن ييسر لهذا الانسان سبيل تغيير شيء من النواميس التي تقول إنها راسخة ثابتة.

والجواب على هذا، هو أن منطق العلم لا يتعرف على شيء من الفرضيات الغيبية التي لا مستند لها إلا قياس الغائب على الشاهد، لا سيما بعد أن تجاوز العلم مرحلة البحث الفكري والنظري إلى مستوى التجربة والمشاهدة، وبعد أن جاء أمثال دافيد هيوم فضبط سير العلم ضمن هذا القانون المحدد.

إن أي كاتب يتمتع بخيال متوقد خصب، يستطيع أن يصور لنا لون الحياة الانسانية بعد قرن من الزمن مثلاً، وبوسعه أن يصورها حياة رائعة طليقة من أكثر هذه النواميس الثابتة، والمنغصات الدائمة. ولكن هل يستطيع العلم أن يثبت توقيعاً له تحت شيء من هذا الكلام؟ وإذا كان للعلم أن يقيس الخيال المطلق على الواقع المشاهد، فأي فرق بقي بين(الغيبيات)التي يتقزز أصحاب هذا الاعتراض من الحديث عنها والإيمان بها، والحقائق العلمية التي يحفلون بها ويعتمدون عليها؟

إن الحقائق العلمية الثابتة إلى هذا اليوم، ليست شيئاً اكثر مما استطاعت سبل التجربة والمشاهدة، أن تصل إليه وصولاً فعلياً. ولقد استطاعت هذه السبل؛ اعتماداً على الاستقراء الدائم المستمر، أن تؤكد صفة الثبوت والديمومة لهذه النواميس التي تحدثنا عنها، وفي الوقت الذي نفاجأ بشذوذ أو خرق لهذه النواميس، ينهض البحث العلمي لتفهم الاسباب الطارئة التي اقتضت هذا الخرق.

وإلى أن يظهر شيء من هذه المفاجآت التي لا يدخلها رجل العلم في حسبانه، فإن أحداً من العقلاء لا يستطيع أن ينزع سمة الثبات والرسوخ عن هذه النواميس التي تحدثنا عنها[٢][2].

---

[٢][2] نقول كل هذا، دون أن ننسى بأن وجود الكون في مجموعة إنمار هو من قسم الممكنات التي لا يستحيل انعدامها أو تطورها، كما أوضحنا ذلك من قريب. وإنما صفة الثبات والتطور شيء نسبي نصف به جزئيات الكون نظراً لعلاقة ما بينها.

ونحن الذين نؤمن إيماناً راسخاً بإمكان وقوع المعجزات والخوارق للأنبياء والصالحين من عباد الله، من احياء للموتى وإبراء للأكمة والابرص، وقلب الحقائق . لا يفرض علينا هذا الإيمان أن ننزع صفة الثبات والرسوخ عن النواميس الكونية التي عرفت بهذه الصفة منذ أقدم الاحقاب.

كيف، ولو نزعنا عنها هذا الوصف، لفرغت المعجزة الباهرة عن معناها، ولزال موجب تسميتها بهذا الاسم.

مَا هِيَ الانسِجَة المتطوّرة لِنَواميس الكون؟

كما أن للجسم أنسجة تتكون من اتحاد الخلايا الكثيفة، وكما تتجدد هذه الانسجة بسبب تناسخ الخلايا وتعاقبها، فإن لتلك النواميس الكونية الثابتة التي تحدثنا عنها، أغلفة أو أنسجة من النظم الضوئية القابلة للتطور والتناسخ.. إنها نظم جزئية كثيرة جداً، تظل تطوف حول النواميس الراسخة التي فرغنا من الحديث عنها، كما تطوف ذرات الخلية حول نواتها العجيبة المعقدة!..

هذه النظم الكونية المتطورة، والتي تشبه في تطورها ما قد ذكرت . يجب علينا أن نفرق بينها وبين تلك النواميس الثابتة، باهتمام بالغ، ولعل بعض أسباب هذه الاهمية سيتضح لك فيما بعد.ولنضرب أمثلة لبعض هذه النظم:

١. إن الانسان في الوقت الذي لم يستطيع أن يستغني عن طاقة الشمس وفائدة الهواء، استطاع أن يطور السبيل إلى الاستفادة منها، كما استطاع أن يستولد من فوائدها الاصلية العامة، فوائد جزئية متفرعة جديدة، وأن يستغل هذه الفوائد للوصول إلى نتائج ايجابية لم تكن موجودة من قبل.

٢. والإنسان، وإن وقف عاجزاً عن التخلص من الحاجة إلى زراعة الارض واستنباتها، لم يعجز عن أن يطور السبيل إلى ذلك، فقد استطاع أن يتخذ إلى فلاحة الارض سبلاً أيسر وأوفر، وأن يتخذ إلى استحصاد الزرع وتحضيره طريقة اسرع وأفضل، وقد تتبع ذلك كله نتائج ومنافع جديدة لم تكن من قبل.

٣. ولقد عجز الإنسان ان يطيل من عمر نفسه إطالة ذات أهمية ومعنى، كما عجز أن يحرر نفسه من فاجعة الموت. إلا أنه استطاع أن يحشو عمره القصير بمزيد من أسباب المتعة والرفاهية، كما استطاع أن يشعر ذاته بقدر اكبر من ملذات الدنيا ونعيمها!.. ولقد سار إلى تحقيق المزيد من مظاهر الرفاهية لنفسه أشواطاً كثيرة، وأمكنه التقدم العلمي من أن يعتصر الكثير مما حوله من خدمات الطبيعة لاستخراج اكبر قدر من خيراتها ومكوناتها المفيدة لبني الإنسان. ولا يزال ماضياً لاستخراج المزيد من هذه المكونات المفيدة.

٤. ولقد عجز الإنسان أيضاً عن أن يقتحم بشيء من التغيير الجذري إلى ما يسمى بعوادي الطبيعة من حر وبرد وصقيع وريح لا فحة، ولكنه استطاع أن يطور اسباب الوقاية من هذه العوادي، وأن يستخرج منها فنوناً جديدة من الحماية ضد هجمات الثلج والمطر والشمس والبرد، كالمنازل العصرية والسيارات، وأجهزة التدفئة الحديثة التي تشيع الدفء في البيوت. ووسائل النقل المتطورة؛ بحيث أصبح انسان المدينة الجديدة لا يتعرض في أكثر حركاته وتنقلاته لاي اختلاف خطير في درجة حرارة الجو.

ومعنى هذا أنه لا الإنسان القديم ولا الإنسان العصري الحديث، استطاع أن يغير شيئاً من قسوة (الطقس) أو ضراوته، ولكنه أستطاع أن يطور أساليب النضال ضد آثار هذه القسوة وهجماتها.

***

هذه أمثلة واقعية محسوسة وكافية فيما أعتقد للدلالة على الحقيقة التي نحاول أن نلفت النظر اليها. وإنني أحسب أنها قد باتت واضحة كل الوضوح لكل ذي نصيب من الثقافة والفكر.

والخلاصة أننا إذا شبهنا الكون كله، بشموله واتساعه، بالخلية الواحدة فإننا نقول إن النواميس الثابتة المستقرة فيه هي نواة الخلية، وإن هذه الانظمة الجزئية التي لا تفتا تتحرك في تطور متصاعد هي ذراتها التي تظل في تطواف وحركة دائبة حول تلك النواة.

ولقد شبهنا الجرم الكبير الذي لا يكاد يحدّ كبره . لتوضيح حقيقته . بالجرم الصغير الذي لا يكاد يحد صغره، ولا حرج!.. فرب جرم كبير ضيع كبره على الناس ضوابطه وطبيعته، ورب شيء صغير جداً كان صغره عوناً على درك حقيقته وكيفية تركيبه. فلنتخذ من هذا نموذجاً مصغراً لذاك.

***

مَا هِيَ حُدُود الإبدَاعِ العِلمِي؟

الآن، وقد عرفنا الثابت والمتطور من بنية هذا الكون كله، نستطيع أن نتبين، بدقة، حدود الابداع العلمي وخارطة مملكته.

وأقول: الابداع العلمي، ولا أقول: العلم. لان العلم إنما هو إدراك الشيء ادراكاً صحيحاً كما هو في الواقع. وهو،كما يقولون، صفة كاشفة للاشياء على حقيقتها دون أي تأثير فيها؛ وهو لذلك، يمكن أن يشمل جوانب الكون كله دون أن يقف منه عند خطوط أو حدود. على أنه مهما انبسطت مساحته كشفاً، ومهما امتد اشعاعه عمقاً، فإنه لن يستطيع أن ينفذ إلى غور الاشياء وكنهها.أما الإبداع العلمي . ونقصد به التحكم بذات الشيء أو بعض كيفياته وعوارضه إثر معرفة لقيمته وقوانينه . فلا ريب أن له حدوداً لا يمكن تجاوزها.

حدوده عند آخر تلك الانظمة المتطورة التي تحدثنا عنها؛ فإذا ما أراد العالم أن يتجاوزها إلى شيء من تلك النواميس الاصيلة الراسخة، أشار له العلم إليها من بعيد يعرفه ببعض شؤونها، دون أن يهديه إلى أية حيلة أو سبيل لشيء من التحكم بها أو التبديل والتغيير لها. ولاسبب في ذلك أن العلم بالشيء . مهما اتصف بالإحاطة والعمق . لا يمكن أن يورث صاحبه أي قدرة على إعدام موجود أو إيجاد معدوم ضمن ذلك الشيء!..

كل ما يمكن أن يورثه العلم إياه هو القدرة على استغلال الاجزاء الموجودة ضمن ذلك الشيء!***أو الكيفيات والاعراض والطبائع التي يتسم بها في الاصل، لتطوير العلاقات القائمة بينها، أو بينها وبين عناصر أي شيء آخر، ضمن حدود ثابتة من الاستعدادات المودعة فيها، ابتغاء الوصول بها إلى نتائج جديدة أكثر خيراً وفائدة.

أي إن شأن الباحث العلمي ليس إلا كشأن صانع يقف في ورشة عمله. إن كل ما يمكن أن تثمره صنعته، مهما أوتي قدرة وإبداعاً، هو أن يعمد إلى المواد الاساسية الاولى(الخام) المهيأة بكاملها أمامه، فيؤلف ما بينها؛ طبقاً لكيفية معينة، ابتغاء تحقيق غايات معينة.

إن هذا الصانع مهما اتسم عمله بالإبداع، فإنما هو يبدع كيفية مجردة لا أكثر منها، ولقد كانت هذه الكيفية موجودة حكماً ضمن موادها المبعثرة، فاستخرجها الصانع الحكم الى الواقع. ولو فقدت هذه المواد من بين يديه أو فقد منها الاستعداد لهذا التآلف الذي أخرجها فيه، إذاً لوقف عاجزاً عن تحقيق أي شيء.

وجهد الباحث العلمي لا يختلف عن جهد مثل هذا الصانع بشيء.

إنه يقف في ورشة هذا الكون، فيلتقط منه مواد وعناصر ثابتة، ثم يتعرف على طبيعتها المكنونة فيها، ويدرك بالتجربة المآلات المتوقعة منها، فيجمع بين منثوراتها ويؤلف بين اشتاتها طبقاً لعلل غائبة قائمة في ذهنه، فيتكون من تآلف تلك النثار والاشتات آثار حميدة أو منكرة، مفيدة أو ضارة، حسب الغاية المرجوة والغرض المطلوب.

وما ينبغي أن تتوهم أن هذه الآثار كانت معدومة فاوجدها العالم، لتقول إن البحث العلمي قد أوجد شيئاً معدوماً!.. إن هذه الآثار والنتائج كانت موجودة حكماً ولكنها كانت مجرد استعدادات موزعة في باطن أسبابها المبعثرة هنا وهناك، ثم إن البحث العلمي اكتشفها واستخرجها، كما يستخرج الزارع الشجرة الوارفة الكبرى من نواة صغيرة أودعها في باطن الأرض، فلقد كانت هذه الشجرة كامنة ضمن هذه النواة ولا ريب، حتى وهي ملقاة على وجه الأرض كحصاة يابسة.

وإذاً فإن موضوع العلوم المادية على اختلافها، إنما هو جزيئات هذه الظواهر الكونية التي تحيط بالنواميس الراسخة التي تحدثنا عنها وضربنا أمثلة لها.

وثمرة هذه العلوم هي استخراج ما تتضمنه هذه الظواهر، من استعدادات للمرونة والتطور والتغيير، وتسخيره من أجل تحقيق حياة أفضل ومنفعة أشمل.

فإذا دنت هذه العلوم الى شيء من النواميس الثابتة الاصيلة، وقفت في مكانها، ثم أشارت إليه على وجه التعريف به لا أكثر،وهو كما قلت تعريف سطحي ناقص لا يلامس شيئاً من أغواره ومقومات كينونته.

وانظر إلى تاريخ حركة العلوم وتطورها، وتأمل جيداً في خطوط سيرها، تجد أن المدارك البشرية العامة قد تقدمت، ما في ذلك شك، وأن الانسان قد امتلك مزيداً من المقاليد السحرية العجيبة لتسخير الكون واعتصار المزيد من فوائده ومخزوناته، وأنه قد تهيأ له من أسباب العلوم والمعارف المختلفة ما لم يكن يحلم به من قبل.

ومع ذلك فإن إنسان هذه العلوم كلها لم يستطيع ان يزحزح شيئاً من تلك السنن الكونية التي عرضناها لذكر طائفة منها.

لا يزال هذا الإنسان الذي وضع القمر تحت سلطانه، ثم انطلق يلقي شباك بحثه نحو الكواكب والافلاك النائية الاخرى . لا يزال هذا الإنسان يموت بنفس الطريقة التي تمت بها أي ذبابة ضعيفة في الكون!..

ولقد ظل الحلم الذهبي العظيم الذي يراود فكر الانسان منذ فجر وجوده، هو أن يفوز بالشباب الخالد، فأن لم يكن خالداً فلفترة أطول.

ولكن الأجيال تعاقبت دون أن يتحقق شيء من هذا الحلم ! لقد عجز علم العلماء جميعاً على امتداد العصور عن اتخاذ أي وسيلة لإبعاد الشقة بين الانسان والموت أو بين الانسان والمشيب!..

إنك لتلاحظ أن كلمة(الجيل) تحمل،(ونحن نعيش فيما يسمى بالقرن العشرين) نفس مدلولها اللغوي القديم؛ دفعة بشرية تمر من جسر هذه الدنيا ضمن ميقات زمني لا يتجاوز مائة عام تقريباً. إن شيئاً من علوم الطب والصحة ورعاية الحياة والأبدان لم يستطع أن يتدخل لتعديل هذا الميقات الزمني المحدد لعمر الجيل.

خذ بيدك أحد كتب التراجم والأعلام، ثم استعرض فيه أعمار أقدم طبقة ممن يترجم لهم ذلك الكتاب، تجد أن متوسط الأعمار التي كان يعيشها أصحاب تلك الطبقة يساوي أو يزيد على متوسط الأعمار التي يعيشها رجل الحضارة الحديثة اليوم.

يقول ألكسيس كاريل في كتابه؛ الإنسان ذلك المحهول:(إن فشل علم الصحة والطب حقيقة غريبة!.. فعلى الرغم من التقدم الذي أحرزناه في التدفئة والتهوية واضاءة المنازل وعلم التغذية والحمامات والألعاب الرياضية،والفحص الطبي الموسمي، وزيادة عدد الأطباء الاخصائيين زيادة كبيرة، فإن يوماً واحداً لم يزد على الحياة البشرية!..)[3].

غير أنه راح يعزي أعضاء المدنية الحديثة بأن العلم وإن لم يحقق لهم هذا الحلم العظيم، إلا أنه أورثهم بدلاً عنه حياة أعرض وإن لم تكن أطول؛(فلقد حدث تغيير ملحوظ في مظهر الرجال والنساء، فقد أصبح الناس جميعاً أعظم إدراكاً الآن مما كانوا عليه في الأزمان السابقة، بسبب علم الصحة والألعاب الرياضية والقيود الغذائية ومعارض الجمال والنشاط السطحي الذي ولده التلفزيون والسيارة..)[4].

وعلى الرغم من هذه التعزية التي يقدمها الدكتور كاريل لجماعة المدنية الحديثة، فإن علينا ان نعلم بأن

المدينة لم تعطنا كل هذا الذي يحدثنا عنه كاريل، إلا بعد أن أخذت منا ثمنه كاملاً غير منقوص من نفس النوع!..وعن حديث ذلك ليطول ويخرجنا مما نحن بصدد شرحه وبيانه.

ثم انظر إلى انسان الحضارة الحديثة كيف يستجدي الأرض . كأجداده السابقين . طعامه، وكيف يستمطر السماء شرابه، وتأمل كيف لا يزال منظر السنابل اليانعة مستوية على سوقها الباسقة الخضراء، يملأ الأعين بتباشير الخير والأمل، كما يستبشر بذلك اصحاب القرون الخوالي دون أي اختلاف أو فرق.

لقد وقف العالم كله عاجزاً عن أن يغنيه عن شيء من ذلك (ببرشامة) تحرره من منة الأرض وعطائها أو من فيض السماء وقطره.

لئن كان علم الحضارة الحديثة قد جعل الانسان طليقاً فيما يشبه بستاناً خصيباً مترامي الأطراف، فإن الحقيقة الراسخة قد صدمته في الوقت ذاته بحدود قاسية لذلك البستان، يتثلم كل من العقل والعلم دون اختراقها.

الكون .. والسُلوك

ترى هل من علاقة بين قوانين الكون وضوابط السلوك؟

---

[3] الانسان ذلك المحهول: ١٤١

[4] المرجع السابق: ١٤١

لابد من طرح هذا السؤال بين يدي الحديث عن موضوع الالتزام، ومشكلة القديم والحديث. فالذي يخيل إلي، هو أن الذين يثيرون مشكلة القديم والحديث، ويرفعون شعار التحرر من قيود الالتزام، لم يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال من قريب أو من بعيد، ولم يخطر على بالهم أي تصور للعلاقة بين قوانين الكون وضوابط السلوك، وبتعبير آخر؛ بين قوانين الكون ومبدأ الالتزام.

نحن لا نشك أن الذي يسير فرق بيداء مستوية معبدة يجد نفسه طليقاً عن التقيد بأي منهج للسير؛ وأن الذي يسير في طريق متعرجة تحف به المرتفعات والوهاد، ويجتاز عرض أنهر أو يمر بطول ترع وبحار، يجد نفسه مضطراً للتقيد بمنهج لا يتجاوزه يمنه أو يسرة، وإلا لم يأمن من غوائل الطريق ومهالك الضياع.

إن شأن الانسان أمام موضوع الالتزام بسلوك معين، لا يخرج عن طبيعة هذا المثال الذي ذكرناه.

ذلك لأن الجادة التي تحف بها المهالك، جزء لا يتجزأ من أنظمة الكون الشاملة، التي رأيناها كيف تنقسم الى ثابتة ومتطورة. وإذا كان أمر هذه الجادة وحدها يفرض علينا تجاهها التزاماً معيناً، مهما كان شأنه، فإن مجموع حياتنا السلوكية العامة.

إذ إن السلوك إنما هو في حقيقته تعامل مع نواميس الكون. ولا بد لكي ينجح هذا التعامل ويحقق غاياته، من أن يتم وفق طبيعة هذه النواميس ويسير على مقتضاها.

وهكذا، فلا بد أن ينهض سلوك الانسان مع أنظمة الكون وقوانينه، على أسس من العقائد والمبادئ الفكرية والاجتماعية والقواعد العلمية، ذات انسجام كامل مع واقع الكون وقوانينه المتطورة والثابتة، بحيث تنزل منها منزلة الثوب من الجسد، أو منزلة الساعة الضابطة من حركة الفلك،

وبقدر ما يتوفر بينهما من التطابق والانسجام، يكون الانسان أقدر على استخلاص اسباب سعادته من معين الحياة ومخزن الكون.وبقدر ما يظهر بينهما من التشاكس والتناقض، يكون الانسان اعجز عن توفير اسباب سعادته في الحياة.

وواضح أننا لا نعتد إلا بالسعادة التي تمتد ظلالها الى كل من الفرد والمجتمع، فليست سعادة تلك التي يستخلصها الفرد من حق الجماعة، أو تلك التي تقتنصها الجماعة من حق الفرد.

وإذا كان هذا شيئاً معلوماً . ولا نشك في أنه معلوم بالبداهة . فإن مما يترتب عليه بالضرورة، أن مقياس التطور والثبات في مبادئ السلوك وقوانينه، ينبغي أن يكون تابعاً لمقياس كل منهما في سنن الكون ونواميس الحياة؛ يقابل الثابت من هذه عقائد ومبادئ يجب أن تظل ثابتة من تلك؛ ويقابل المتطور أو المتناسخ من هذه،أمور ينبغي أن تكون هي الاخرى عرضة للتطور والتناسخ من تلك، وإن أي انسياق نحو الرغبة في تطوير شيء من مبادئ السلوك وضوابطه، دون التقليد بهذا الربط والتناظر، ينم عن سطحية بالغة في النظر والتفكير.

أجل.. إن من السطحية البالغة أن تقود أحدنا نزعة التطور إلى أن يضع للناس . مثلاً . مشروع نظام يتجاهل علاقة الانسان بالأرض واستنباتها، أو يتناسى الفطرة التي تخضعه لقانون التكاثر النوعي والمحافظة على السلالة، أو ينسخ الشرائع الضامنة لسير العدالة في العلاقات بين الناس.

لسوف يظل سلوك الفلاح مع الأرض كما كان منذ أقدم الازمان لا يتغير فيه إلا الشكل والأسلوب، ولسوف يبقى الفلاح فلاحاً بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ما دامت حاجة الانسان الى الارض ومخزوناتها ثابتة راسخة لا تتبدل مع الزمن.

ولسوف يظل العدل . في مضمونه السليم . مبدأ مقدساً، مهما قدمت حقيقته وتطاول عمره، ما دامت للانسان حاجاته الذاتية التي لا تقوم حياته بدونها، ومادام وصول الناس كلهم الى حاجاتهم هذه رهناً بالتعاون والتنسيق.. وإنما يتجلى العدل، في الأحكام والمبادئ التي تحافظ عليه. ولا ريب أن التبرم بهذه الاحكام والمبادئ، مع الإقرار ببقاء تلك الحاجات واستمرار توقف حياة الانسان عليها سذاجة شنيعة.

ولسوف يظل العدوان على تنظيم اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة وفتح باب الإباحية المطلقة لهذا اللقاء، عملاً شاذاً غير مقبول، بل معاندة باطلة لسنة من أرسخ السنن الكونية ثباتاً، ذلك لأن التكاثر الانساني خاضع لقانونه الفكري المعروف، وهذا القانون لا يحقق

اهدافه على نحو سليم إلا بنوع دقيق من التنسيق، وتنظيم المسؤوليات، والاعتماد على خلايا الأسرة.. ولنشفع لذلك العدوان جدته، ولا يودي بقدسية هذا التنظيم قدمه.

ولتعلم أن الجواب على كلامنا هذا بالحديث عن التطوير والتغني بضرورته، ونعت القيد بعبارات السخرية أو الاشمئزاز .كل ذلك عبث لا معنى له، ما دام الحديث يتعلق بامور تستند في حقائقها الى محاور ثابتة مستقرة من النظام الكوني.

نعم هو عبث مجرد عن أي كسوة منطقية تعطيه من الجد حتى مطهره، سواء روج له أرباب الثقافة العامة والفكر الاجتماعي، أو روج له اصحاب المذاهب الادبية الحديثة باسم الرومانسية والأدب الابتداعي ونحو ذلك.

أي إن النزوع الى(اللاالتزام) مهما كان أسلوبه، ومهما تنوع الطريق الذي يسير فيه، إنما هو مشاكسة للكون والحياة في أرسخ قوانينهما وأحكامهما الثابتة.

ومصير مثل هذه المشاكسة إنما هو اضطراب ماحق، يودي لا جرم الى الهلاك.

ولكن في الناس من يظلون يتجاهلون هذه الحقيقة رغم وضوحها، ثم يرددون على الدوام كلمات محفوظة مكررة لا تنطبق على أي معنى يحده المنطق.

يتبرمون بكل قديم، من عقيدة أو سلوك، وينعتون الالتفات اليه أو الاستقامة عليه بسمة الرجعية ويهشون لكل مستحدث جديد، ويحيطونه بنظرات الإجلال والتقديس، وينعتون السعي اليه بالتقدمية!..

ومهما ارشدتهم الى ما في اتباع بعض القديم من الفوائد والفضائل، فحسبه سوءاً بنظرهم أنه قديم، ولا تشفع له فوائده شيئاً. ومهما نبهتهم الى ما في التزام بعض الجديد من المساوئ، فحسبه من الفضل على كل حال أنه جديد، وليس في المساوئ المحتشدة فيه ما يضره بعد ذلك شيئاً!..

توهموا السوء في وصف القديم لذاته، فتقززت نفوسهم عنه. وتخيلوا الفائدة في وصف الجدة لذاتها فتفتحت نفوسهم له!.. فهو إذا تأثر نفسي عن طريق الانعكاس الشرطي، يتم في غيبوبة كاملة عن رقابة العقل او الفكر!..

ونقول نحن: لا بأس بهذا المذهب، بشرط أن يضع له أربابه فلسفة ذات قانون ومنهاج، ثم يسري مفعول هذا القانون ويطبق على جميع الجزئيات، دون أي اضطراب أو تخلف. وذلك بان يشهروا من كل جديد سلاحاً على كل قديم.

غير ان الذي يحصر المسألة فيما يشبه الشهوة الجامحة، انها لا تعتمد على أي منطق أو حدود!..إنك لتجد أرباب هذا الجموح، راقدين من الكون في مهاد قديمة من أنظمته وسننه، تحيط بهم لفافات كثيفة من الطبائع والنظم البشرية العتيقة؛ وهم يجمحون مع ذلك بايديهم وأقدامهم، كما يفعل الطفل في المهد، ويزعمون أنهم يثورون على كل قديم.

يعيشون في قديم من حرارة الشمس وضيائها، وعلى قديم من أديم الأرض وغبرائها، وتحت قديم من الدورة الفلكية الدائبة ومع قديم من الآمال الذليلة بقطر السماء وزرع الأرض وضرع الانعام، وأمام قديم من المخاوف لا تزال آخذة بالخناق: هرم لا يتخلف، ومشيب لا ينحسر وموت لايقهر!.. ثم يصيحون من تحت هذه الانقاض كلها، انهم يثورون على كل قديم!..

***

انا لا اهدف من هذا الكلام إلى أن اجعل الإنسان مثقلاً تحت الشعور بهذه الحقائق التي تظل ملتصقة به، بحيث ينوء به هذا الشعور عن التحرك نحو أي تطور أو ابداع.

ولكني أريد مما اقول، أن ينطلق الإنسان في سلوكه من قواعد المعرفة والعلم، سواء عندما يجنح الى الالتزام أو يتجه الى التحرر عن القيود. فإن كلاً من هذين السبيلين لا يستأهل ذماً ولا يستحق مدحاً إلا بمقدار انضباطه بالموازين العلمية المجردة.

وإن من أجلى ما تقضي به قواعد العلم أن الانطلاق نحو أي جديد لا يتم إلا بالسعي إليه فوق جسر من القديم، وهذا معنى قولهم: إن من لا قديم له لا يملك السبيل إلى أي جديد.

فإذا اتضح لنا هذا المعنى، ووقفنا جميعاً على أرضية هذا المبدأ، أمكننا أن نبعث العين، في رؤية واضحة سليمة، إلى حقول واسعة من حولنا، تدعونا للانطلاق فوقها نحو دنيا فسيحة من التطوير والتغيير والإبداع.

إن نظرة سريعة فاحصة الى هذه الحقول، تبصرنا بالكثير من النظم والظواهر الكونية، التي تبدلت وتطورت مع توالي الأزمنة والأحقاب: اتخذ العمران أشكالاً مختلفة جديدة أثرت على الكثير من أعراف الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وتفتحت البصائر على علوم كونية جديدة زادت من معرفة الانسان بقوانين الكون ودقائقه وبصرته بمزيد من السبل الى تسخيره واستخراج ثرواته؛ تصاغرت رقعة العالم على اتساعه وتلاقت أطرافه على تباعدها، بما قد فعلته وسائل الاعلام المرئية والمسموعة ووسائل النقل الحديثة، فتمازجت الأعراف بعد تناكر، وتلاقحت البيات بعد تباين، فانتهى العصر الذي كان للبيئة فيه سلكان على الناس، وأصبحت كلها مجتمعاً عريضاً واحداً تصطرع لافي كل شبر منه شتى المذاهب والعادات والآراء. تفتحت الارض عن مخزونات جديدة، فأورثت الانسان قدرات جديدة، ومكنته من أن يركب في الحديد جناحين فإذا هو يسبح مع طيور السماء ويعلو متن الفضاء.

إن هذه الظواهر الكونية المتطورة، ليست إلا مسوغات طبيعية لتطوير ما يقابلها ويتصل بها من السلوك وحيث هذا التطوير طويل الذيل متسع الجوانب، له مجال آخر يعنى به المقبلون على دراسة البشرية والقانون. والمهم ان تعلم بأن هذا الدولاب لم يبدأ في دورانه اليوم، بل كان ولا يزال دائراً مع الاحقاب كلها: يتفاعل التطور الكوني مع التطور السلوكي، كل منهما يمد الآخر بمزيد من القدرة على التبدل والتناسخ، ضمن حدود مرسومة، إن لم يرسمها الانسان لنفسه في السلوك ارتسمت بذاتها في حركة الكون.

وهكذا، نجد انفسنا أمام حقيقة أخرى، هي ان مناهج السلوك الانساني ذات صلة مباشرة بواقع النظام الكوني، وعلى الانسان إذاً أن يستعمل عقله في إيجاد أكبر قدر من الانسجام بين لون سلوكه وواقع الحياة التي من حوله: يخضع الأول للثاني فيما يتعلق بالسنن الراسخة الثابتة، ويتفاعل الأول مع الثاني إبداعاً وتطويراً فيما يتعلق بالظواهر القابلة للرقي والتطوير.

وإذا تأمل العقل، متجرداً في هذه الحقيقة، لم يجد بداً من اليقين بها والتوقيع عليها. غير أنه إذا تدخلت الشهوة والرغبة ونزعات العصبية والعقد النفسية وردود الفعل تبدد ضياء هذه الحقيقة في غمار ذلك كله، وفسد السلوك وانفصل(في كثير من جوانبه) عن واقع الكون وخط سيره.

وتلك هي المشكلة التي يقضي الناس أكثر حياتهم في الحديث عن ظاهرها والتعليق على آثارها والتساؤل عن أسبابها، دون أن يتأملوا ببصيرة العقل المجردة، لحظة واحدة، في جذورها وجوهرها!..

***

والآن.. ما مَعنَى هذا كلّه؟

إذا تم الوفاق على أن في الكون نواميس ثابتة تستعصي على التغيير والتطوير، وأن فيه أيضاً الكثير من الظواهر الخاضعة لكل منهما، وأن السلوك ينبغي أن يكون صدى وانعكاساً لكل ذلك، فما هو المعنى الهام الذي نريد أن نستخلصه من كل ما ذكرناه؟

إن المعنى الهام الذي نصل إليه، هو أن هذا الكون ليس إذاً مجموعة أبخرة تكاثفت فتعقدت فتفرعت، جاءت بها ريح عاصف، وستمضي بها ريح عاصف، وتحكم العلم به فيما بينهما كما يشاء.

المعنى الهام الذي نستخلصه، هو أن شيئاً من حقائق الكون ليس تابعاً للعلم، وإنما العلم هو التابع حقاً للكون وهو الثمرة المستخلصة منه، والترجمة المعبرة عنه. لقد وجد الكون أولاً، كما شاءه مولاه، ثم وجد العلم به نتيجة لطول تأمل العقل فيه، فأيهما التابع والمتبوع؟

وإذا استطاع العلم ببعض ظواهر الكون أن يبصر الإنسان بطريقة تطويرها واستخراج مكونها، فليس معنى ذلك أن هذه الظواهر قد غدت تابعة للعلم، لأن العلم . كما قد قلت لك . لا يوجد شيئاً معدوماً، وإنما يؤلف بين أشياء موجودة، بعد ان يتبن خصائصها وأسرارها، فالعلم بالشيء تابع له، على كل حال، وليس متبوعاً،

المعنى الهام الذي نستخلصه، هو أن الإنسان مقود في هذا الكون وليس قائداً، محكوم وليس حاكماً!..

يتحرك، ولكن بمقدار طول الزمان المثبت في عنقه، ويتصرف، ولكن ضمن نطاق الحكم المبرم في شأنه.

وإنه ليشبه في ذلك تلك الدابة التي شاء صاحبها أن يرخي لها زماماً طويلاً ما بين عنقها واليد الممسكة به، حتى إذا أتى عليها حين استنشقت فيه من حقائق العلم ما أثار هياجها الى الحرية، فانطلقت فيما حولها من الوادي الخصيب تقطعه طولاً وعرضاً، نبت في

ذهنها . وقد رأت من شأن نفسها ما رأت . أنها المالكة لهذه البيداء والقاضية فيها بما تريد؛ كيف لا وها هي تعلو الصخور آنا وتستبطن الوهاد أخرى، دون أن يقف في وجهها أحد أو يطولها أي مكروه!.. ثم ركبت متن هذا العلم الذي أثار هياجها، وانطلقت تضرب بحافرها الصخر فتوري منه الشرر، وما هو إلا أن توغلت فليلاً حتى اصطدمت بحدود مؤلمة لم ترها ولكنها أوجعت صفحة عنقها!.. حدود قاسية لم تبصرها بالعين المجردة، ولكن لمستها واحست بها عند اجتياز المسافة!..

هل في هذا المثال أي مبالغة في تصوير الحقيقة؟

وهل يختلف الإنسان المتقلب في جنبات هذا الكون عن قصة هذا الحيوان السائم في مرتعه، ضاف المرتع أو اتسع؟

وهل يختلف غرور هذا الانسان اختلافاً ما عن غرور ذلك الحيوان؟

لا تجبني على سؤالي هذا بدافع من الغيظ أو العصبية أو الرغبة في الانتصار، فإن الوصول الى معرفة الحقيقة أقدس من ذلك كله.

فكيف إذا كانت الحقيقة المبحوث عنها ذات علاقة كبرى بمصير الإنسان؟

أيقظ مشاعرك كلها الى صوت عقلك الصافي، ثم أصغ إلى هذا الصوت جيداً، وأخبرني أي جواب يمليه عليك.

***

أما الآن فقد حان ان نسأل:

من هو القابض على زمام الانسان في رحلة هذه الحياة؟. وبتعبير ادق: من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟

أي من هو هذا الذي يمسك بنواميس الكون في قبضة عجيبة لا تغلب؟.. لم يفلح في تغييرها أو زحزحتها علم العلماء ولا فكر المفكرين، ولا قوة الأقوياء ولا حكم أولي السلطان، ولا جبروت المتجبرين، ولا تقادم الزمن وتقلب الأحقاب؟..

الجواب التقليدي الذي يفر إليه من لا يريد أن يواجه الحقيقة، هو: الطبيعة!!.

وهذه الكلمة تستعمل عادة مفتاح باب للفرار، لا جواباً علمياً يطرح أساساً للبحث والنقاش!..

وإلا فليجيبوا؛ أليست المخترعات العلمية في مجالات الصناعة والطب والذرة والفلك وغيرها من معطيات الطبيعة وثمارها؟ فهلا سخروا مفاتيح الطبيعة للأبواب التي أوصدتها الطبيعة ذاتها؟.

أليست هذه المفاتيح في أيديهم؟. أو لم يسكرهم مرآها بدون خمر، حتى غدا أحدهم يقرر أن الطبيعة قد خضعت خضوعها المطلق للانسان، وأنه قد غدا بذلك سيد قدره؟.. فما لهذه المفاتيح لا تفتح مغاليق تلك النواميس الراسخة رسوخها المطلق فوق هام الإنسان؟.. والديالكتيك!.. الديالكتيك الذي يراه آخرون دستور حركة الكون وسر تقلبات التاريخ، والرحى الدائرة فرق أحداث الدهر، ماله لا يطحن فيما يطحن هذه النواميس المستحجرة فما يفتتها شيء، الضابة بجذورها فما يحركها شيء، القائمة على أصولها فما يلويها شيء؟!.اذاً فالسؤال يظل يفرض نفسه ويطلب الجواب الموضوعي المنصف:

من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟؟..

إن سيد القدر في حياة الإنسان هو ذاك الذي خلق القدر ثم أعطاه معنى الرسوخ وحكمه في رقاب الناس، وجعل له سلطة أعلى من سلطة كل قوة وعلم وفكر وتدبير. إنه ذاك الذي بث في الكون نظامه الذي إذا انتقل الى العقل والذهن أصبح اسمه علماً. إنه ذاك الذي أبدع السنن الكونية وخلق سبيل العلم بها، وهو ذاك الذي بيده وحده مقاليد هذه الأقدار يصرفها كما يشاء، عندما يشاء.

سيد القدر هو ذاك الذي إذا استحكمت بك أقداره وهزتك هزاً، لم يرتفع صوتك بغير اسمه ولم تتأمل إلا في رحمته ولطفه.

إنه السيد الذي لا تراه إلا بإحدى عينين:

عين من التأمل العقلي الصافي المتحرر عن كل قيود الشهوات والعصبيات والأنانيات والعقد النفسية المختلفة.

أو عين من البلاء المطبق الذي تتطاير عند نزوله الآمال بالناس كلهم وبالأسباب جميعها. سيد القدر هو ذاك الذي نسق مظاهر الكون مع بعضها في نسب متكاملة متكافئة، ليتم بينها التفاعل المتعاون والتلاقي المنتظم، وهو الذي جعل من الخلية الصغيرة التي لا تراها بغير المجهر نموذجاً مصغراً جداً جداً للدنيا المعقدة التي تعيش فيها، بكل ما فيها من الحركة الدائبة والحياة المنتظمة والمحاور الثابتة.

سيد القدر هو ذاك الذي أعلن منذ أقدم العصور على سمع الدنيا كلها عن رسوخ هذه الأقدار؛(السنن الكونية) وعن قانونيتها الثابتة المستمرة على مدى العصور متحدياً بها تطورات العلم وتفاقم القدرات وتعاون السلطات وتزايد المخترعات.

أجل .. لقد أعلن فاطر السماوات والأرض في بيانات حاسمة قاطعة، أن هذه النواميس ستظل نافذة كما هي، حاكمة على الناس كلهم، حتى تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وينتشر هذا النظام الكوني كله.

تأمل في بعض هذه البيانات:

(الله الذي خلقكم من ضَعف، ثم جعل من بعد ضَعف قُوَّةً، ثم جعل من بعد قوة ضَعفاً وشَيبَة، يخلُق ما يشاء..) الروم:٥٤.

(ومن نُعَمِّرهُ ننكِّسه في الخَلق أفلا يعقلون) يس: ٦٨.

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُتيتم من العلم إلا قليلاً) الإسراء:٨٥.

(أينما تكُونوا يُدرِكُّم الموتُ ولو كنتم في بروج مُشيَّدة) النساء:٧٨.

(كلُّ نفس ذائقةُ الموت، ثم ألينا تُرجعُون) العنكبوت:٥٧.

(وأنزلنا من السَّماء ماء بقَدَر فأسكنَّاه في الأرض وإنَّا على ذَهابه لقادِرُون) المؤمنون:١٨.

(.. ونُقرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مُسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلُغوا اشُدَّكم، ومنكم من يتُوفَّى ، ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمُر لكي لا يعلمَ من بعد علم شيئاً) الحج:٤.

(وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حبَّاً فمنه يأكلون).

(وآية لهم الليلُ نسلَخ منه النهار فإذا هُم مُظلمون والشمسُ تجري لمستَقَرّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم، والقمرَ قَّدرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجُون القديم، لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكل في فَلك يسبحون) يس:٣٣. ٣٥.

(وإذا مسَّ الانسان الضُّر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضُرَّه كأن لم يدعنا إلى ضُرّ مسَّه) يونس:١٢.

(نحن قسمنا بينُهم معيشتَهم في الحياة الدُّنيا ورفعنا بعضهم فرق بعض درجات ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخرياً) الزخرف: ٣٢.

أرأيت الى هذه التقارير القاطعة في أسلوبها، المطلقة عن قيود الزمان والمكان، المرسلة في قوة وإصرار الى أعماق غيوب المستقبل، المتجاهلة بل المترفعة عن محاولات التطوير والعلم، أيمكن أن ينطق بها بشر، وإنما هو نفسه ذرة من جزيئات الكون، لا يدري ما الذي يأتي به الغد، أو يتطور اليه العلم، أو تمتد اليه الطاقة؛ بل أين هو هذا العالِم الكوني العظيم الذي يملك من اليقين العلمي في هذه الأمور، ما يجعله يبعث بالتقرير القطعي في شأنها إلى الأجيال المقبلة المتلاحقة، يحمل ذمته حتمية استمرارها، متحدياً بتقريره هذا تغيرات الدهر وطفرات الزمن ومفاجآت العلم وعجائب الاكتشاف.

إن أعظم العلماء شأناً اليوم، يرى الحقيقة العلمية بعينيه، ثم يتحفظ مع ذلك في التعبير عنها، متوقعاً أن يفاجأ في كل يوم بقيود أو حدود جديدة لها، إنه ليعيش، وهو يرعى اكتشافاً علمياً يسيراً، حياته كلها، ثم يقضي نحبه وهو يتأمل أن يأتي من بعده من يؤكدها أو يكشف نقاضها أو يلحق بها قيودها، ويتمم لها شروطها.

إنه لا يجد لديه من جرأة البحث ما يعتمد عليه إطاء حقيقة علمية صغيرة، صفة القطع والبقاء ضد تطورات الزمن وتقدم العلم، وهو الباحث العلمي المختص فأي رجل هذا الذي يملك أن ينهض من وراء القرون الغابرة فيبعث الى الدنيا كلها بتقرير علمي جازم يفصل فيه أمر النواميس الكونية الراسخة، ويرفعها فوق هام البشرية، مؤكداً أن أي طاقة، مهما كانت، لن تمتد اليها بأي تغيير؟!

ألا يخشى هذا الرجل أياً كان، أن يخونه الدهر في بعض مما يقول؟ كأن يتقدم العلم فيقضي على المشيب وعقابيله، أو يغير من نظام الفلك وقانونه؟!. لا سيما وإن الماضي الذي يلوح له، ينبئه عن الكثير الذي تغير بعد أن لم يكن متوقعاً تغيره.

ثم تأمل في جلال الربوبية كيف يبدو جلياً في أسلوب هذه التقارير، انظر الى قوله مثلاً:

(ومن نعمره ننكسه في الخلق..) هل تتصور بعقلك المنصف أن بشراً من الناس، مهما اصطنع الجبروت والربوبية الزائفة، يستطيع أن يتكلم بهذا الأسلوب، فينسب الى ذاته التعمير والتنكيس والخلق، وهو في الحقيقة مخلوق غير خالق، معَّمر غير معِّمر، منكَّس غير منكّسِ!!...

أم هل تتصور بعقلك الحر أن يقول بشر من الناس بلسان بشريته التي لا يمكن أن تخفى:(ونقُّر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى. ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً) أو يقول(كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون).

لقد عجز الانسان عن تقليد أسلوب زميله الانسان (والشواهد كثيرة في تاريخ الأدب العربي)لأن فوارق المشاعر والطبائع بين شخص وآخر، تحول دون النجاح في ذلك، وإنما الكلام مرآة النفوس؛ أفينجح بعد ذلك بشر مخلوق في تقليد كلام الخالق؟!.

***

إن سيد القدر . يا قارئي الكريم . هو صاحب هذه التقارير التي تلوتها عليك. إنه ذاك الذي يقول:(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) والذي يقول(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)والذي يقول(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أنه الحق).

فإن لم يكن هو هو، فمن عساه يكون في تصورك؟

العلة الطبيعة، وقد أوضحت لك قبل قليل التهافت الأخرق الذي يستلزمه هذا الكلام!.. إن مفاتيح الطبيعة هي العلم، فما لمفاتيح الطبيعة لا تفتح مغاليق الطبيعة؟

أم لعلة الانسان؟ والانسان هو المحكوم عليه بهذه القوانين والسنن، فكيف يكون المحكوم هو الحاكم، والمسود هو السيد.

أم لعله العلم؟ فما للعلم كلما دنا إلى حمى هذه النواميس، نكص على عقبيه واكتفى باضاءة كاشفة له من بعيد؟!.

هو الله يا هذا.. هو الله!!..

فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

***

منَ العِلم إلى الدِين

لعل قارئاً يقول: كان الحديث في الفصول الأولى من هذا الكتاب حديث علم مجرد، وربما كان كلاماً مقبولاً لدى الجميع، لأنه حديث علم؛ ففيم أقحمت الدين في موضوع علمي بحت، وقد عرفت أن العقول تنقاد للبحث العلمي أكثر مما تتأثر بالحديث الديني؟

إن اعتراضاً من هذا القيل لا يبعد أن يحوك في صدر طائفة من القراء، وهم أولئك الذين لم يصطلحوا مع الدين على تفاهم سليم بعد. وإنه ليسعدني أن أتوجه في مثل هذه البحوث، بالخطاب إلى هذه الفئة من القراء قبل غيرها، بل إني لأشعر أنني لم أقم بأداء أي واجب إن لم أقدم شيئاً مفيداً الى هؤلاء الاخوة بالذات.

من أجل هذا، كان لابد من أن أفرض ورود مثل هذا الاعتراض، وكان لابد أن أحفل به وأجيب عليه.

هذا الاعتراض، وليد تصور خاطئ جداً يقع فيه ثلة كبرى من الباحثين والمعلمين والمتعلمين!..

إنه تصور أن الدين والعلم يتنافسان على خطين متوازيين، لحاقاً بغاية معينة. ومنطقي جداً أن يستلزم هذا التصور عقد مقارنة بين خطي العلم والدين، والخروج من هذه المقارنة بنتيجة القول: إن خط العلم أسلم وأوثق من خط الدين.

إذا كان ذلك التصور صحيحاً، فلا بد أن يكون كل من هذه المقارنة ونتيجتها صحيحاً أيضاً.

ولكن التصور من أساسه خطأ وباطل، فبطلت نتيجته معه.

وليعلم أنني إنما أريد بكلمة الدين: الاسلام، وإنما الدين الحق الذي ألزم الله به عباده دين واحد.

الدين الحق لا يمكن أن يسير على خط مستقل يوازي خط العلم. فإن رأيت ديناً من الأديان هكذا يسير، فاعلم انه باطل، وتحول منه مباشرة الى خط العلم الذي يوازيه، واذكر دائماً أن العلم الحر هو الأساس المقدس لكل سلوك.

الدين الحق نهاية هامة من نهايات العلم، فهو قائم في طريقه، وليس سائراً عن يساره ولا يمينه.

وأوضح مثال موجز على ما نقول، هذه الفصول الأربعة، التي اجتزناها من كتابنا هذا، لقد بدأناه سيراً على خط البحث العلمي، لم نتعرض لدين، ولم نستشهد بقرآن، إلى أن انتهى بنا هذا البحث ذاته إلى الوقوف عند سلطان الله في الكون؛ عندما دلنا الاستقراء العلمي على أن في الكون نواميس ثابتة لا تتحول، وأن لا سلطان للعلم والإنسان عليها، فكان لا بد أن يكون سلطانها بيد من أوجدها سمة الثبات والاستقرار؛ ووجوده أمر حتمي مادامت هذه النواميس موجودة، وسلطانه أيضاً أمر حتمي مادام سلطان بقائها وتحولها ليس بيد طبيعة ولا علم ولا جهد بشري.

فإذا انتهى العلم بالباحث الى هذا الحد، فما الذي يجده أمامه؟ إنه يجد . بدون شك . إلهاً قادراً حكيماً يتصف بجميع صفات الكمال ويتنزه عن سائر صفات النقصان، إليه مآل الانسان وبيده تصريف أمره.

فإذا اكتشف الانسان هذه الحقيقة على درب بحثه العلمي، فما الذي ينبغي أن يصنع؟.

شيء منطقي جداً أن يدين بالولاء والتعظيم المطلق لهذا الإله. وهذا هو معنى الدين. وهذه الدينونة بحد ذاتها ليست ممارسة لعمل علمي، ولكنها تطبيق عملي لبعض مقتضيات العلم.

إنك تسبر أغوار الأرض بالبحث العلمي، فتقع على معدن أو ثروة من الثروات السائلة، فتقبل على هذه الثروة تستغلها وتستفيد منها. إن استفادتك من هذه الثروة في تجارة أو نحوها ليست ممارسة علمية، ولكنها نتيجة منطقية للدراسة العلمية.

وكما أن من الخطأ أن تضع تجارتك بهذه الثروة على خط مستقل يوازي خط البحث العلمي لباطن الأرض، ثم تقارن بينهما، فتقول: إن البحث العلمي أكبر فائدة من السعي التجاري . كذلك من الخطأ أن تضع الدين الحق على خط مواز لخط العلم ثم تقارن بينهما لتقول: إن العلم أفضل من الدين.

إذا تفهمت يا أخي القارئ هذه الحقيقة التي يتيه عنها الكثير من الباحثين السطحيين، فدعني أسألك:

ما هي قيمة العلم إن لم تتفاعل سلوكياً مع مقتضياته؟

بل ما الذي قدسته من العلم إن أنت وصلت في طريقه إلى حقيقة الإيمان بالله عز وجل، تقابلك وجهاً لوجه، فأعرضت عنها وتجاهلت مقتضياتها، ثم قفزت من فوقها، ومضيت تزعم أنك لا تستبدل بالبحث العلمي شيئاً؟ ومتى كانت غاية البحث العمي هي ممارسة حب عذري مع كلمات العلم ومصطلحاته.

وإذاً، فلا بد، ونحن نقدس المنطق العلمي، أن نتفاعل تفاعلا إيجابياً مع سائر النهايات التي يوصلنا إليها هذا المنطق العلمي.

وقد رأيت أن دراساتنا العلمية في الفصول الاولى من هذا الكتاب، قد ساقتنا بطريق منهجي رتيب الى حقيقة الإيمان بالله، فلا بد إذاً من التفاعل مع هذه الحقيقة وإنما يكون ذلك بالدينونة لسلطان الله وحكمه.

ومهما تنوعت هذه الأحكام الإلهية، فإنها لا تقبل إليك إلا ممهورة بخاتم العلم وتوقيعه، ما دام أن الذي اوصلك الى صاحب هذه الأحكام وعرفك على ذاته وصفاته إنما هو المنهج العلمي.

بقي أن تعلم سر هذا الخطأ الشنيع الذي يقارن على أساسه كثير من الباحثين بين العلم والدين.

السر أن هذه المقارنة، مستوردة، كما هي، من العالم الغربي.

إن الدين هناك ليسير فعلاً على خط المستقبل يوازي خط العلم، لا تجد بينهما من لقاء في أول الطريق ولا في آخره. ومن ثم فإن أحكام الدين هناك تنبع من قناعات مستقلة بذاتها وقد لا يلتقي العلم معها إطلاقاً.

ولعل البوتقة الوحيدة التي تطبخ فيها هذه القناعات هي استشعار المصلحة وراء تحقق الوازع الديني في المجتمع، مهما كان نوعه ومهما كانت دوافعه. ومهما كانت قيمته من حيث الواقع والحقيقة[٥][5].

فهم رغم ارتباطهم الوثيق، في حياتهم المادية، بالأفكار والمناهج العلمية، يشعرون أن في استسلامهم للوازع الديني . أياً كانت حقيقته ومصدره العلمي . نوعاً من التربية للغريزة الإنسانية، لا يقوم مقامه فيها أي جهد تربوي آخر.

---

[٥][5] أنظر كتاب أصول الشرائع لبنتام ص٣٠٧ترجمة احمد فتحي زغلول ، وأنظر أيضاً العقل والدين لوليم جيمس.

وهذا الشعور الصادق فيهم . رغم انغماسهم في الحياة المادية المترفه . هو آية أن الانسان نزاع بفطرته، مهما كان متقدماً في ثقافته وعمله، إلى التدين؛ وأن الاسلام حقاً هو دين الفطرة.

إلا أنه لما حيل بينهم وبين معرفة الدين الحق الذي إليه حنين الفطرة ونزوعها، والذي ينهض على أسس النظر والبحث العلمي المجرد، قنعوا بما يعتبر في الجملة إيماناً بالله وخضوعاً لسلطانه، ودينونة لألوهيته، وإن جاء إيماناً مشوشاً مستنداً إلى تصورات مشوهة، لا يستطيع أن يزحزح من واقع شأنهم الفاسد وحياتهم الاجتماعية الجانحة شيئاً.

وإنهم في ذلك ليشبهون حال أمة بدائية في فهمها لطبيعة الحياة وممارسة أسباب العيش، أشعرتها الغريزة الفطرية بالحاجة إلى البحث عن غذاء.. ولكنها لم تهتد إلا إلى أوراق الشجر والبشيع من الطعام، فاتخذت لنفسها من ذلك غذاءها الذي لا مناص لها عنه!..

حقاً إنه طعام بشيع لا يقره العلم، ولكنهم لم يتبينوا . بسبب الجهالة . غيره مما يستجيب لإلحاح غريزتهم وحاجة نفوسهم إلى الطعام!..

فمن اجل ذلك، يتخذ الدين عندهم لنفسه طريقاً مستقلاً عن طريق البحث العلمي، لا يتفرع عنه في أصل، ولا يلتقي به عند نهاية، ومن أجل ذلك تعقد المقارنة المستمرة عندهم بين الدين والعلم، وتقوم المناظرة في ذلك وتعقد، وتأخذ أبعاداً خطيرة من الجدل الذي ينتهي بمذاهب متضارعة في هذا الصدد: فمن مذهب يرى تفضيل الدين على ما يقضي به العلم ويجيء بشعار (تخليص الدين من سلطان العقل!!..) ومن مذهب يرى تفضيل العلم على الدين، وينادي بشعار (العلمانية أو العلمنة).

غير أن شيئاً من هذا كله غير وارد عندنا نحن.

إن بين ايدينا الدين الذي ينتهي إليه العلم في خطواتها المنهجية الصافية، والذي يتلائم بعد ذلك مع الفطرة الانسانية أدق ما تكون الملائمة.والحديث في هذا الموضوع طويل الشرح والذيل، يخرجنا ما نحن بصدده، فارجع إلى مصادره الموسعة إن شئت[٦][6].

إذاً قيس في تدرجنا من مباحث العلم؛ إلى حقائق الإيمان بالله، ثم الى ضرورة الدينونة، أي الخضوع، له . أي انحراف عما يقتضيه منهج البحث العلمي. بل الانحراف كل الانحراف يكون، عندما ينتهي بنا البحث العلمي إلى نتيجة لا تعجبنا، فنقفز من فوقها أو ننحرف عنها، ثم نزعم أننا نواصل السير على طريق العلم مع ذلك.

***

فمَن هُوَ الإنسَان؟ وَمَا هِيَ وظيفتهُ؟

الآن.. وقد علمنا أن سادة القدر في الكون ليست إلى الانسان، مهما أُتي من قوة، ومهما بلغ علمه، وفي أي عصر أو مكان وجد . فمن عسى أن يكون الانسان إذاً؟.. وما هو المركز الذي يتبوؤه في خضم هذا الكون؟..

والجواب أن الانسان هو ذلك الحيوان المعقد العجيب الذي لم يفهم العلم منه إلا أنه جملة هيكل وعضلات وأعضاء وأنسجة وسوائل وشعور. غير أن العلم أدراك رغم هذا أن الانسان ليس مجرد هذه الكتلة؛وأنما هو حقيقة خفية أخرى، يكمن وراء هذه الأمشاج!.. إنه تلك العلاقة الخفية المجهولة بين المخ والشعور. وهو تلك الصلة المبهمة بين الأعضاء والعضلات من جهة ووجوه النشاط العقلي والروحي من جهة أخرى. وهو ذلك السر الغض العجيب الذي يغشى الجملة العصبية فنسميه الإرادة.وهذا يعني أن الإنسان منفعل في ذاته أكثر من أن يكون فاعلاً.

أي إنه، حتى وهو يمارس التعلم ويسعى وراء الاكتشاف وينبش عن مكنونات الأرض، متأثر أكثر من أن يكون مؤثراً. لأنه لا يمارس شيئاً من هذا بتخطيط منه لجوهر هذه الممارسة. وحسبك لتفهم ما أقول أن تلاحظ أنه لا يعلم شيئاً عن كنه ذاته.

إنه يتعلم، ولكنه لا يدرك كيف تعلم!..

وإنه يقرر ويريد، ولكنه لا يفهم إطلاقاً كيف انبعثت الإرادة من كيانه وكيف عزم وقرر!.. يفرح، ولا يعلم كيف فرح. ثم يحزن، ولا يدري كيف حزن!!..

---

[6]٦ انظر في هذا كتاب كبرى اليقينات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق للمؤلف.

تجده عاكفاً على موضوع علمي عويص، ينبش دخائله ويحلل عناصره بذهن متفتح وقاد. وفي لحظة واحدة تختفي منه هذه الذات.. ويفجؤك منه هيكل بارد جامد قد انخطفت منه السيما التي كانت تؤنسك، والشذات العجيبة الفياضة التي كانت تناجيك وتحس بك. فكأنه . وهو لا يزال هو بلحمه وعظمه وهيكله . شيء آخر غير ذالك الذي كان يقف أمامك قبل قليل!..

حقاً إن الانسان منفعل في حياته أكثر من أن يكون مؤثراً، حتى وهو يشتد ساعداً في مراقي العلم والحضارة والفكر.

وانظر كيف يعبر بيان الله عز وجل عن هذا المعنى الدقيق بكلمة واحدة في هذه الآية:

(ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

إنها كلمة(كرمنا) فهي تقول: لم يكن الانسان هو المكرِم لذاته ولم يكن هو المبدع لأسباب علوه وسموه على سائر المظاهر الكونية الأخرى. وإنما سيق الى التكريم سوقاً، سيق إليها من حيث لا يعلم، وغرست في كيانه مقومات الكرامة والسادة دون أن يفقه منها شيئاً،فقد كرم من قبل غيره، ولم يكن هو صاحب الفضل في تكريم ذاته وإبداع أسباب الافضلية فيها.

والانسان بناء على ذلك كائن لا يملك من أمر ذاته شيئاً، محكوم بيد ذاك الذي ابدعه مع جملة ما قد أبدع من مظاهر هذا الكون، وهو الله الخالق الباري عز وجل.

وادق تعبير علمي جامع لهذا الوصف أن تقول. إنه عبد لهذا الإله الخالق.

أي إنه مجرد سلعة ممتازة في البضاعة الكونية العائدة إلى الله عز وجل.

تلك هي هوية الانسان بحد ذاته، اياً كان دينه ومذهبه، ومهما كان سلوكه واتجاهه، غنياً كان أو فقيراً حقيراً كان أو أميراً.

هوية دمغت بها حقيقة الإنسان، لا انفكاك عنها بحال.

إن هذه الحقيقة بالنسبة إليه، إحدى السنن الكونية القاهرة الثابتة، فلا ينفع في التخلص منها انفلات نحو العلم، أو فرار نحو القوة، أو تقلب محدود على بساط الحرية، أو تربع فوق عرش الحكم والملك.

ذلك لأن هذه العبودية نابعة من داخل كيانه وليست ملتصقة به من خارج ذاته، فلا مفر منها بحال!..

تجد طابعها فيما قد ذكرناه، من كونه منفعلاً بالحياة أكثر من أن يكون فاعلاً لها، متأثراً بقانونها أكثر من أن يكون مؤثراً فيه.

تجد طابعها في سائر تقلباته الجسمية والعضوية والنفسية.

ينام دون أن يملك من أمر نومه شيئاً، لا الجلب له ولا الامتناع منه. ويستيقظ دون أن يملك من هذه اليقظة شيئاً لا التحقيق لها ولا الفرار منها.

وتسأل عن السر، فلا تجده إلا في بيان هذا الخالق عز وجل:

(وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى)

(الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الاخرى إلى اجل مسمى)

يتقلب في مراحل الطفولة اليافعة، فالشاب القوي الغض، فالكهولة الوسطى، فالشيخوخة المدبرة، فالموت الذي لا مفر منه. إن كتب له أجل وطال به عمر.

ويسأل العلم عن السر، فلا يجيبه إلا قول الله عز وجل:(الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة..)

تجده، إن أقبلت إليه النعمة وأوت اليه القوة، سكران منتشياً بكأس نعيمة وبسطة قدرته . إلا من ألجم نفسه بلجام العبودية لله . لا يؤمن بربوبية خالق ولا يرى في عنقه سنة لواهب. فإذا أدبرت النعمة عنه، وتحولت القوة ضعفاً، وتسللت مصيبة ما إلى حياته استيأس معها من المجير والنصير، تجده وقد انخلع عن جبروته وصحا من سكرة نعيمه وتعرف إلى هذه العبودية الجاثمة في كيانه، ثم راح يهتف مستغيثاً باسم الله ورحمته وألطافه.

ولست أنسى ما عشت و ظاهرة ذكرتها لسائر طلابي، يوماً تقطع فيه الطريق بنا ما بين اللاذقية ودمشق، بتراكم الثلوج، كان (البولمن) يخوض بنا غمار عاصفة ثلجية أحالت الكون أمامنا إلى كتلة بيضاء لا يستبين فيها أرض من سماء ولا تبدو فيها معالم جبل ولا طريق، كانت السيارة تترنح بنا ذات اليمين وذات اليسار بسبب الجليد، وكانت حوادث الموت والهلاك منتشرة حولنا.

فأذر أن جميع المسافرين . وهم بضع وثلاثون راكباً استحالوا في تلك الساعة إلى قلوب مؤمنة طاهرة، وألسنة مستغفرة ذاكرة، وقال قائل منهم . وما عرفته قبل ذلك إلا أشدهم انغماساً في اللهو وأبعدهم عن الدين . إننا خمسة وثلاثون دعاء لن ترد.

إنها إحدى الحقائق الراسخة في فطرة الإنسان وكيانه: تنفخه النعمة فينسى ذاته وينسى ربه، وتذله المصيبة فيتعرف على ذاته ويذكر ربه. ويسأل العلم عن السر فلا يجيبك إلا قانون الله عز وجل:

(وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه..)

وقوله تعالى:

(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً)

فهل تبقى مع هذه الأدلة من ريبة تبعث الشك في معرفة هوية الإنسان؟

وهل يحتاج الباحث الحر إلى أدلة تكشف عن ذاته بعد هذا الذي أوضحناه؟

ألآ إن الانسان عبد مملوك لله عز وجل، أبدعه كما شاء، ورقاه في درجات العلم والدراية والقوة، إلى أن سخر له أكثر ما حوله من مظاهر الكون، وانبسط له عليها عرش من السيادة والسلطان؛ ثم نكسه الله تنكيساً وأعاده إلى حيث انطلق به، فركبه الضعف بعد قوة، وغشيه النسيان بعد علم، وانطفأت شعلة حياته بعد طول التماع. والمآل كله بعد ذلك الى الله. وإن العاقل الحر ليخر ساجداً لعظمة البيان الإلهي الذي يعبر عن هذا كله بهذه الكلمات:(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)

وإنه ليتضائل صغاراً أمام هذا التحدي الإلهي الثاني:

(يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز)

وصدق الله العظيم إذ جمع الحقائق كلها في هذا الخطاب الجامع الموجز:

(ليس لك من الأمر شيء..)

***

تلك هي حقيقة الإنسان، انتهينا من بيانها وعرض الأدلة عليها، وإنها لمستغنية عن البيان بذاتها، ناطقة في كيان كل فرد من الناس بالتعريف بنفسها. ولكن ما أكثر ما يحتاج الإنسان في هذه الحياة الى إيضاح الواضحات وشرح البدهيات.

أما الآن، فما هي وظيفة الانسان؟اتذكر الحقائق التي أبرزناها آنفاً، تحت عنوان: الكون والسلوك؟ ان في تلك الحقائق لبياناً يكشف لك عن الوظيفة التي حملها الانسان في هذه الحياة.

إذا كان السلوك الاختياري ينبغي أن يكون انعكاساً منسجماً للواقع الاضطراري، إذاً فإن وظيفة الإنسان هي ممارسة العبودية لله تعالى بالسلوك والاختيار كما قد فطره عليها بالقهر والإجبار.

وهذه الحقيقة لا تحتاج الى فلسفة مزيد شرح وبيان.

فإن العبد المملوك الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ولا يأتيه الرغد من العيش والنصب من البلاء الا من قبل سيده المالك لرقبته .

ينبغي أن يكون سعيه كله من أجل الحصول على مرضاة سيده هذا.

ومعاذ الله أن يكون في الكون كله مالك حقيقي غير من بيده مقاليد السموات والأرض الملك الواحد القهار.

وكيف يمارس العبد عبوديته لله عز وجل؟

أولاً . ينبه جميع مداركه الى أنه مملوك لله عز وجل، وأن ليس تحت يده من نعمة يتمتع بها، إلا وهي وديعة من الله تعالى عنده، يمتع بها إلى حين، ثم تستلب منه عند أجل معلوم، وأن جميع الأساليب الكونية للخير والشر إن هي إلا أسباب جعلية، قرنها الله تعالى بما شاء من النتائج والآثار، فظهرت رابطة ما بينها أمامنا في مظهر السببية المطلقة.

ثانياً. يسخر جميع النعم والقدرات التي منحه الله إياها لتحقيق المبادئ والأهداف التي أمره الله تعالى بالسعي إليها. وقد أرسل الله تعالى إلى عباده لائحة البيانات لهذه المبادئ مع أنبيائه ورسله الذين ختموا ببعثة آخر الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام، وليس في هذا المجال متسع لشرح شيء عن هذه البيانات، وما تتضمنه من المبادئ والمناهج المرسومة لسلوك الفرد والمجتمع. فإن لشرح ذلك مجالات أخرى ومراجع خاصة.

ثالثاً . لا ينسى، وهو يسير في رحلة حياته الدنيا، ويتقلب بين خيرها وشرها، أن هذه الحياة ليست إلا مرحلة، وما هي إلا جسر منصوب بين ماض من العدم المطلق، وآت من الحياة الخالدة بتخليد الله تعالى وقضائه. فما ينبغي أن يغتر منها بظل ظليل، فيميل إليه ويستوطن فيه، وينسى منهج الرحلة ونظامها. فإن الوقت إذا تداركه أيقظه دون أن يرحمه، وخلف له الحسرة والندامة فقط، وليذكر، ليتأكد مما أقول، بيان الله عز وجل:

(..إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار)

(وأعلموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار[٧][7] نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)

فإذا أيقن ذلك، فليعلم ان عليه أن يجند كل عمله وطاقاته وملكاته، ليعتصر من الدنيا أسباباً يحقق بها المبادئ والقيم التي أمره الله تعالى أن يقيم المجتمع الانساني على أساسها.

رابعاً . ما ينبغي أن يخضع هذه الحقائق لتطوير أو تناسخ وتبديل، مهما تقدم العلم وكثرت المخترعات، وطار الانسان في جنبات الفضاء. فإن محور هذه الحقائق محورها باقياً، فما ينبغي لأنظمتها الدائرة من حولها والمتسقة معها أن تتبدل أو تتطور.

تلك هي المعالم الكبرى لوظيفة الانسان في هذه الحياة، وإن من وراء ذلك تفاصيل ليس هنا محل بحثها.

ولن تجد أي منطق علمي يرد على شيء مما ذكرناه، أو يملك إدخال أي ريبة أو شك عليه. فالانسان عبد لله عز وجل أيقن ذلك أو جحد به. والعبد يجب أن يتسق سلوكه مع طبيعة كونه عبداً، وسيد هذا العبد قد أنزل اليه بياناً أخبره أنه مقبل بعد الموت على حياة أخرى، وحذره من أن أي انحراف من هذا القيد اليوم عن خط الالتزام بصراط الله عز وجل، سيجر عليه إذ ذاك عقوبة لا مرد لها، كما أكد له أن أي سلوك صالح يتفق مع مرضاته عز وجل، صادر بنية خالصة لبلوغ مرضاته عزوجل، سينال صاحبه عليه الأجر العظيم الذي قد لا يحلم به اليوم.

الكلام وعد بغيب كما ترى. ولكنه صادر ممن بيده نواميس الكون، أي ممن هو سيد القدر في حياة الانسان، وقد انتهينا من إثبات ذلك بالمنطق والمنهج السليم فلا نعيد ما قلناه. إذاً فلا بد من حياة ثانية يتحقق فيها كل إخباراته عز وجل. وحسبك أن تتأمل ملياً في هذا الكلام الذي هو تنزيله وكلامه:

(كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)

هذا الحق الذي أعرضه لك، لن تجد أي منطق حر يملك السبيل إلى مناقشته.

ولكن الذي يرفضه أو يناقشه دائماً، إنما هو منطق العواطف والاحلام، وحديث الرغبات والشهوات وردود الفعل!..

إنسان القرن العشرين غزا القمر، وكاد ان يتخذ من دنياه وطناً ثانياً له، وأولو الافكار العتيقة ما يزالون يركنون إلى أسر التدين للمجهول والعبودية للغيب!..

فعلى أي أرضية من المنطق والمنهج العلمي يقف هذا الكلام، حتى تقف معه عليه فتناقشه من منطلق قدر مشترك؟ إنك لترى أنه حديث نشوة أكثر من أن ينتمي إلى منطق علم.

---

[٧][7] الكفار جمع كافر وهو الزارع.

إن من اليسير جداً أن تقول لصاحب هذه النشوة العارمة، بعد أن تهزه هزاً رقيقاً ليصحو إليك:
إن أولئك الذين اتخذوا من القمر وطناً ثانياً لهم، لم يستطيعوا أن يعتقوا أنفسهم بذلك من أي مظهر من مظاهر الضعف البشري اللاصق بهم، ولم يستطيعوا أن يجعلوا من القمر معقلاً لهم ضد الموت، أو دواء لهم ضد الهرم، أو سبيلاً سائغاً لانعتاق الانسان عن حاجاته الفطرية الى الارض!..
إن انسان القمر لا يزال يموت . كما قلنا . قلنا . بنفس الطريقة التي تموت بها أي ذبابة ضعيفة في الكون . إنه لا يزال أسيراً لكل السنن الكونية التي تطبعه بطابع الضعف، وتأسره لجملة القوانين الكونية التي تحكم حياته كلها.
إنه لا يزال، إذاً ، أسيراً لما يسميه بالمجهول، عبداً لما يسميه بالغيب.. ولا زمام لا يزال مطوقاً به. وطول الزمام لم يغير من واقع الأسر وحقيقته شيئاً.

***

أو هو منطق من يقول: فيم يخضع الانسان . في عصر الحرية لقيود العبودية وآصارها، وهو إن كان شيئاً سائغاً بالامس، فإنه لأمر مستهجن لا يتفق وحرية الانسان اليوم. وإن الإله لغني كل الغنى عن عبادة الانسان له!..
وهذا أيضاً كلام من يريد أن يؤلف أنشودة في مدح الحرية، فيستنهض لذلك كل عواطفه ووجدانه إلا المنطق والعقل!..
إن من اليسير أن تقول لهذا الشاعر: أرأيت الى الانسان في عصر الحرية، فيم يظل يذل نفسه، ويستعبد كيانه للحصول على لقمة طعام أو جرعة شراب؟..
سيقول: إن تكوينه البشري يحوجه اليهما ويضطره للحصول عليهما بأي شكل.
قل له إذاً: إن تكوينه البشري قد قضى عليه بالعبودية في واقع الامر وحقيقته، وما من شك في أن السلوك الاختياري يجب أن ينسجم مع الواقع الاضطراري.
إن العبد لا يسأل وما ينبغي أن يسأل: لماذا يتصرف مع سيده تصرف العبيد، ولكنه يسأل عن العكس من ذلك: لماذا يتصرف تصرف الأحرار وهو عبد.
إذا كنت، حقاً، تريد أن تتبرم وتثور على التزام مسلك العبودية لله، فتعال فأعلن الثورة أولاً على الواقع الأساسي الثابت الذي يدمغ البشرية كلها بطابع العبودية له. فإذا أسعفتك الحرية في الانفلات منه، فلا عليك أن تحطم سائر القيود السلوكية التي جاءت ثمرة ونتيجة له. أما إذا خانتك حريتك المزعومة هنا، وتخلفت عنك قواتك الضاربة، ورأيت نفسك أسيراً لطبيعة العبودية في كيانك، فإن من الرشد لا مرية فيه، أن يكون سلوكك الاختياري متفقاً مع وضعك وواقعك الاضطراري وإن من المشاكسة والتناقض مع منطق الأمور أن تخالف بين المقدمات ونتائجها.
أسمعت عن أجير تحركت فيه نوازع الحرية، فقعد عن التزاماته تجاه من قد استأجره، قبل أن يعمد الى العقد الذي بينهما فيبطله ويلغيه؟!..
أم هل سمعت عن شاب تبرم بتبعات بنوته لأمه وأبيه، فتجاهل هذه التبعات أو استعلى فوقها، وهو يعلم أن يسب بنوته إليهما حقيقة لاصقة به أينما حل أو ارتحل؟..
ليس الشأن الذي يكسبك أي فخر أن تحرر جبهتك من السجود للخالق عز وجل. وإنما الشأن الذي يكسبك ذلك أن تحرر ذاتك من سلطانه عليك، ومن قانونه المتحكم في حياتك، ومن الزمام المثبت بإحكام حول عنقك.
فإذا كنت أعجز من أن تأتي بأي محاولة ناجحة في هذا التحرر، فسيان: أن تسجد لخالقك عز وجل، على تراب الأرض وحصبائها أو أن تنطح بجبينك هام الجوزاء وما فوقها، فإنما أنت على كل حال عبد.
إن أنكرت ذلك بسبب علم تتباهى به اليوم، فسيقر بذلك النسيان الذي سيغشاك غداً. وإن جحدته قوتك اليوم، فلسوف يذعن له ضعفك المستخذي غداً. وإن استكبر عنه غناك الذي تتمتع به اليوم، فسوف يذل له فقر كالشديد غداً.
نعم .. غداً. وإن غداً لناظره قريب.

***

طارت نملة في الهواء، وقد ظنت أنها تعدت عن حقيقتها وانخلعت عن مهانتها وضعفها. فمضت تحلق في الفضاء مستأسدة مستضرية، تبسط في جو السماء كله سلطان جناحيها. وفيما هي كذلك إذ بطر في منقار عظيم انغلقا عليها!..

فلما أيقنت الهلاك وعلمت أنه الموت، استسلمت له قائلة: خذها مني قصاصاً وحقاً، فليس ذلك شططاً وظلماً على من أُوتي جناحين ليدرك بهما حدود طاقته، فانطلق يصارع بهما ملكوت الله وقضاءه، فيما انطبع به من الضعف والهوان.

***

كَلِمَة الخِتَام

كلمة الختام في هذا البحث، أتوجه بها إلى من لم يقتنع بشيء مما قلته في هذه الفصول، وظل على يقين بأن الطبيعة هي رائد الكون، وبأن العلم وحده هو الزمام الذي يواجه هذا الرائد ويضبطه، وبأن مقادة العلم بيد الانسان، فالانسان هو سيد الطبيعة في تسيارها، وهو إذاً سيد القدر وأحكامه.

لم يبق لدي . بعد الذي ذكرت . من حديث أتوجه به إلى هذا القارئ سوى أن أهمس في أغوار عقله . مخترقاً إليه حجب الكبرياء والعصبية والشهوات والعقد النفسية . بهذه الكلمة الأخيرة:

حسناً لتكن هذه عقيدتك. وما أُريد أن تبرهن على صدقها إلا بشيئ واحد، هو أن تثبت على التمسك بها، وأن تظل معتنقاً لها، ومدافعاً عنها ، إذا تطورت بك الأحوال، واستحكم بكيانك الضعف، والقت بك الأقدار . يا سيد الأقدار . على فراش الموت، فتاهت عنك شهواتك، ونسيتك كبرياؤك، وامنت عن نفسك عقدها، ثم استحكمت بك سكرة الموت، وحشرجت الانفاس في صدرك، وكشف الغطاء عن بصرك، فإذا هو حديد ثاقب، يرى ما لم يره من قبل، ويبصر من كان بالأمس غيباً ووهماً.

حسبي دليلاً منك على صحة ما تعتقده اليوم، أن تظل ثابتاً عليه في ذلك الغد.

وإنه لغد.. قريب.. قريب جداً لو عرفت.

***